مواضع القسم للمنافقين في القرآن الكريم
(دراسة موضوعية)

د. حنان عوض إبراهيم علي

أستاذ التفسير المساعد بقسم الدارسات الإسلامية

كلية الآداب جامعة الإمام عبدالرحمن بن فيصل

ملخص الدراسة:

اهتمت هذه الدراسة بتناول موضوع القسم للمنافقين في القرآن الكريم.

كما سلطت الدراسة الضوء على مواضع قسم المنافقين وعن توجيهات القرآن الكريم في كيفية التعامل مع من يقسم بالله كاذباً، وما ينتظر الحالف من العقاب في الدنيا والآخرة

كما بينت الدراسة مواضع المنافقين للحلف الكاذب في القرآن الكريم.

ويؤكد هذا البحث على عظم اليمين والتحذير من التساهل بها لأنها عهد وميثاق يجب أن يعطي حقه لقوله تعالى: {وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ} [المائدة :٨٩].

وقد أشتمل هذا البحث على مقدمة،وخمسة مباحث وخاتمة، فأما المقدمة ففيها الحديث عن بيان أهمية الموضوع والمنهج المتبع في إعداد هذا البحث كما تناولت الدراسة الأسباب الداعية لاختيار هذه الدراسة.

وأما بالنسبة للمباحث التي عرضت الدراسة فقد تم الكشف عن معنى النفاق في اللغة والاصطلاح ودلالاته في القرآن والسنة في المبحث الأول منها، وفي المبحث الثاني أهم دوافع المنافقين للحلف الكاذب وبينت في المبحث الثالث بيان المواضع التي اقسم فيها المنافقون كذباً في القرآن الكريم. خصص المبحث الرابع، في الوعيد من الله بمن يقسم بالله كذبا.وفي المبحث الأخير في الأسلوب النبوي في الرد والتعامل مع المنافقين.

وقد أنتهي البحث إلي العديد من النتائج أهمها بيان خطورة النفاق والتحذير منه لما يترتب على ذلك تفكيك المجتمعات وبث الفرقة بين أفراده .

الكلمات المفتاحية: (القسم،المنافقين، الحلف،القرآن).

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، أمر بالصدق والإخلاص ونهى عن الشرك والنفاق وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ، وأشهد أن محمد عبده ورسوله الصادق الأمين.

أمَّا بعد:

لقد قطع خوف النفاق قلوب السابقين لعلمهم يدقِه وجِله وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بأنفسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين" قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضي الله عنهما " يا حذيفة نشدتك بالله هل سماني رسول الله صلى الله علبه وسلم منهم؟ قال: لا أُزَك يبعد كأحداً.لقد ملئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً خافوا النفاق خوفاً شديدا واهتموا لذلك هماً ثقيلاً.

ولقد حذرنا منه رب العزة جلا وعلا وكشف لنا الرسول أسراهم وهو مرض تفشى وأنتشر في الأمه الإسلامية بشكل واضح لا يخفى على ذي بصيرة ووجوده في هذه الأمة بهذه الصورة خلل أساسها وصدَّع بنياتها وفرق جمعها وشتت شملها.

لقد أرسل الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ألينا فأنقسم الناس تجاه دعوته إلى ثلاثة أقسام، مؤمن به وكافر معاند، ومنافق آمن بلسانه وكفر بقلبه، فهو يتظاهر بالإسلام لكن أقواله وأعماله تضاد الإسلام وأحكامه.

وهذا الصنف الثالث هم العدو الحقيقي الذي حذرنا الله منه قال تعالى:﴿ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡ ﴾ [المنافقون:٤].فحصر العدوة فيهم لبيان أوليتهم في العداوة، ولهذا وجب على المسلمين جميعاً

أن يجعلوهم أول اهتماماتهم وأن يعلموا أن من أعظم الواجبات عليهم مجاهدتهم ؛ لأنهم أخطر مصيبةحلت بالمسلمين قديماً و حديثاً و المتأمل للتاريخ يجد للمنافقين دور خطير في كل عصر من عصوره.

فقوة الإنسان بجنانه وقوة قلبه حين يدعمها إيمان راسخ بقضية يعتقد بها ويتبناها أما المنافق فأيمانه لا يتعدى في مطامح ومطامع دنيوية يبذل من أجلها أعظم الأشياء للحصول على محقرات الأمور قال تعالي :﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

فذكر أفواههم تنبيهاً على أن ذلك كذب مقول، لا عن صحة اعتقاد. إذاً فحياة المنافق عبارة عن تناقض ما بين حقيقة ما يظهر من صراع داخلي يعيشه للإبقاء على موازنة نفسه في شيء لا إيمان له بها. وهذا أمر لا يخلو من عناء وعذاب فضلاً عن قلة القيمة التي يرى بها الناس فهم لا يثبتون علي موقف.

تتكون خطة البحث من مقدمة و خمسة مباحث وخاتمة.

المقدمة: وتشمل أهمية الموضوع وأسباب اختياره ، وأهداف الموضوع ، ومنهج البحث

أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره.

تتمثل أهمية هذه الدراسة في مايلي:

- تسليط الضوء على النفاق باعتباره من أخطر الأمراض التي تفسد القلوب.

- أهمية نشر الوعي في المجتمع والأمة لأدراك خطورة النفاق وعواقبه الوخيمة وهذا سيدفع المسلمين إلى تجنبه والابتعاد عنه وبذلك تتم الفائدة المرجوة.

-تعديل سلوك الفرد،لأن النفاق يسلب من الإنسان صفات الخير،ويحرمه من فعل الصالحات،وينتزع منه كل القيم السامية.

-أخذ العبرة من التاريخ ففيه بيان كيد هؤلاء المنافقين.

-أهمية تدبر ما ذكره الله في كتابه من صفاتهم ، لأخذ الحيطة والحذر.

- أن الله تبارك وتعالي ذكر المنافقين والمنافقات وصافتهم في كتابة العزيز في سبع عشرة سورة مدنية من ثلاثين سورة كما نجد سورة كاملة في القرآن الكريم تسمي بأسهم .

ويهدف البحث إلى:

- بيان أهمية القسم والعقوبة المترتبة عليه في الدنيا و الآخرة.

-الإشارة إلى أهمية حفظ الأيمان وأن الأيمان الكاذبة هي من أبرز ما يتميز به المنافقون.

- بيان مع المنهج القرآن الكريم في التعامل مع المنافقين وذكر صفاتهم،لأخذ الحيطة والحذر.

- التعرف على أهم المواضع التي اقسم فيها المنافقون في القرآن الكريم.

-توضيح الأسلوب النبوي في الرد و التعامل مع المنافقين.

- الإشارة إلى أهم دوافع المنافقين للحلف الكاذب في القرآن الكريم.

- التحذير من اليمين الكاذبة.

منهج البحث

تقتضي طبيعة البحث استخدام المنهج التكاملي المشتمل على عدد من المنهاج البحثية منها المنهج الاستقرائي والتحليلي والاستدلالي: الذي يقوم على الاستقراء من خلال ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال السلف والأئمة ...

أما الجانب الفني في البحث فهو على النحو التالي:

- تخريج الأحاديث من كتبها المعتمدة مع بيان درجة الحديث.
- توثيق النصوص المنقولة، فإذا كان النقل من المرجع نقلاً حرفياً فإني أضعه بين علامتي تنصيص " ... "، ثم أذكر في الحاشية اسم المرجع، واسم المؤلف، ورقم الجزء – إن وجد – ورقم الصفحة ودار النشر ومكانه وتاريخه والطبعة، .

المبحث الأول

تعريف القسم والنفاق

أولاً: القَسَم.

لغةً:مصدر قسم الشيءَ يقسِمه قسْمًا فانقَسم. والمَوضِعُ: مَقسم،مثال: مجلس،وقسمةُ: جزأه،وهيَ القِسْمةُ و القِسْمُ بالكسر: النَّصِيب والحظُّو يَكون بِمعنَى: قَدرَ ونَظَرَ،كَقَولِكَهوَ يَقسِمُ أَمرَه: أَي: يُقَدرَه،ويُدَبِّرُ،ويَنظرُ كَيف يعمَل فِيه[1].

ويَأتِي القَسَم بِمعنَى اليمِين والحلف، وهو القَسَمُ بِفتحِ القَافِ والسِّينِ وجَمعهُ أَقسَامٌ، مِثل، سَبَبٌ وأَسبابٌ، ومنه: أَقسَمَ بِاللهِ إقساماً، أي: حَلَفَ بِاللهِ حلْفاً. وقاسَمَهُ: أقسَمَ لَهُ، أو شَارَكَه فِي القَسَمِ. ومِنهُ قَولُهُ تَعالَى:﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[الأعراف :٢١].

اصطلاحاً: هوَ طَريق مِن طرقِ تَوكِيدِ الكَلامِ وإبرازُ معانيهِ ومقاصِدِهِ علَى النّحو الَّذِي يريده المتكلم،إذ يؤتى بِهِ لِدفعِ إنكارِ المُنكِرِينَ،أو إزالة شَك الشَّاكِينَ. وهُوَ مِنَ المؤكداتِالت يتمكن الشيءَ فِي نَفسِ السامِعِ وتقويهِ،ولِتطمَئِنَ إلَى الخَبرِ.[2]

القَسَمُ : يمينٌ يحْلِفُها الإنسانُ بالله تعالى وبغيره،مثل : والله مارأيته ، وربِّيما فَعَلْ تُقَسَمًا بالله إنّهُ مصيب.

---

(١)محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري جمال الدين أبو الفضل لسان العرب ـــــ الناشر: دار صادر –بيروت مادة (قَسَمَ)

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل ـ مفردات ألفاظ القرآن ـتحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، ط٢، ١٤١٨هـ–١٩٩٧م، ص٦٧٠.

ومن أشد أنواع الأيمان الكاذبة اليمين الغموس ، وهي التي تغمس صاحبها في الإثم ومن ثم في النار قال العلماء: هي التي يحلفها على أمر ماضٍ كاذبً اعالمًا ، وعدُّوها من كبائر الذنوب واليمين الغموس من الكبائر الموجبة للنار كما قال تعالى :﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[آل عمران: ٧٧] .

جاء في فتوى اللجنة الدائمة: "اليمين الغموس من كبائر الذنوب، ولا تجدي فيها الكفارة لعظيم إثمها، ولا تجب فيها الكفارة على الصحيح من قولي العلماء، وإنما تجب فيها التوبة والاستغفار"[1]هـ.

ثالثاً: النفاق

لغةً:اختلف علماء اللغة في أصل النفاق ، فقيل: إنذلك نسبةً إلى النفق وهو السرب في الأرض،لأنالمنافقيستركفر هو يغيبه ، فتشبه بالذي يدخل النفق يستتر فيه. النفق سرب في الأرض، مشتق إلى موضع آخر،وفي التهذيب: له مخلص إلى مكان آخر، والنفقة والنافقاء، جحر الضبّ واليربوع، وقيل: النفقة والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره، فإذا أُتيَ من

---

(١)علاء الدين الكاساني الحنفي المتوفى سنة 587هـ، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ــ تحقيق محمد محمد تامر المجلد الأول

(٢) ابن فارس،أحمد بن صالح بن زكريا القزويني (ت٣٩٥) ، مقايس اللغة دار الفكر ٣٩٩هـــ،تحقيق : عبدالسلام محمد هارون،(٥/٤٥٤)

(٣)أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوريــ صحيح ــ مسلم، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، ٤/٢٠٥٤، برقم ٢٦٦٩.

قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج، ونفِق اليربوع ونَفق ((بالفتح)) وانتفق، ونفق: خرج منه. ونفق اليربوع تنفيقاً، ونافق، أي دخل في نافقائه، ومنه اشتقاق المنافق في الدين، والنِّفاق بالكسر، فعل النافق، والنفاق الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من وجه آخر(١).

وفي الحديث عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "لتتبعُنَّ سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضبٍّ لاتَّبعتموهم"، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: ((فمَنْ؟))(٢).

شرعاً: كما قال ابن كثير رحمه الله: "النفاق: هو إظهار الخير، وإسرار الشرّ، وهو أنواع: اعتقاديٌّ، وهو الذي يخلّد صاحبه في النار، وعمليٌّ وهو أكبر من الذنوب، قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسرّه علانية، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه)"(٣).

النفاق: نفاقان: نفاق دون نفاق، أو نفاق مُخْرِجٌ من الملّة، ونفاق لا يُخرج من الملّة(٤).

---

(٣)أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم ـ دار طيبة للنشر والتوزيع ـ الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ٤٨/١ عند تفسير قوله تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ [البقرة: ٨]

(٤)محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ـ مدار جالس الكين بين من ازل إياك نعبد وإياك نستعين ـ دار الكتاب العربي – بيروت ـ الثالثة، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م ـ١/٣٤٧-٣٥٩.

(٣)ابن رجب رحمه الله تعالى ـجامع العلوم والحكم، ٤٨٠/٢ بدون طبعة.

(٤)أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين مجموع الفتاوى (٤٣٤/٢٨).

أولاً: النفاق الأكبر:

وهو أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ويُبطن ما يُناقض ذلك كلّه أو بعضه، وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله، ونزل القرآن بذمِّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أنهم في الدرك الأسفل من النار[١].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى بعض صور النفاق الأكبر فقال: "فمن النفاق ما هو أكبر يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن أُبيٍّ وغيره، بأن يُظهر: تكذيب الرسول، أو جحود بعض ما جاء به، أو بُغضه، أو عدم اعتقاد وجوب طاعته، أو المسرّة بانخفاض دينه، أو المساءَة بظهور دينه، ونحو ذلك مما لا يكون صاحبه إلا عدواً لله ورسوله، وهذا القدر كان موجوداً في زمن رسول الله ﷺ، ومازال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده ﷺ..."[٢]

المبحث الثاني: دوافع المنافقين للحلف الكاذب

أولاً: نيل رضي المؤمنين.

يأتي ذكر المنافقين في القرآن وقد تنوع ذكر حالهم فقد وصف هيئاتهم الخارجية وبناءهم النفسي

وفضح زلات السنتهم وآياتهم التي من خلالها يمكن للمؤمن أن يعرف صاحب النفاق حين يذكر القرآن الكريم نواياهم وشرورهم للمؤمنين أو مكائدهم لا يلبث أن يفضح سرائرهم أمام المؤمنين قال تعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة :٩٦].

أي: فلا ينبغي لكم ـ أيها المؤمنون ـ أن ترضوا عن من لم يرض اللهّ عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

وتأمل كيف قال: ﴿ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ولم يقل: "فإن اللهّ لا يرضى عنهم" ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن اللهّ يتوب عليهم، ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن اللهّ لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه اللهّ لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي.[1]

قال بن عاشور "لأنهم إذا حلف والأجل أن يعرض عنهم المسلمون فلا يلوموهم ، فإن ذلك يتضمن طلبه مرضى المسلمين .وقد فرع الله على ذلك أنه إن رضي المسلمون عنهم وأعرضوا عن لومهم فإن الله لايرضى عن المنافقين. وهذا تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين بطريق الكناية إذ قد

علم المسلمون أنما لايرضي الله لا يكون للمسلمين أن يرضوا به"[2].

(١) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـ الناشر: مؤسسة الرسالة ـ الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م ١/ ٣٤٨.

[2]()محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ (١١ـ١٠).

ثانياً: اختلاق الأعذار

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾[النساء: ٦٢].

وفى معنى قوله تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ ﴾هذا وعيد،أي : فكيف يصنعون إذا أصابتهم مصيبة،﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾يعني : عقوبة صدودهم،وقيل : هيكل مصيبة تصيب جميع المنافقين في الدنيا والآخرة،وتم الكلام هاهنا،ثم عادالكلام إليما سبق،يخبر عن فعلهم فقال : ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ ﴾يعني : يتحاكمون إلى الطاغوت،﴿ثُمَّ جَآءُوكَ ﴾(يحيونك ويحلفون) .

وقيل : أراد بالمصيبة قتل عمرر ضي الله عنه المنافق ، ثم جاءوا يطلبون ديته،{يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا} ما أردنا بالعدو لعنه في المحاكمة أو بالترافع إلى عمر،{إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا} قال الكلبي : إلا إحسانا في القول،وتوفيقا : صوابا،وقال ابن كيسان : حقا وعد لانظيره : ليحلفن إن أردنا إلا الحسنى،وقيل : هو إحسان بعضهم إلى بعض،وقيل : هو تقريب الأمر من الحق،لا القضاء على أمر الحكم،والتوفيق : هو موافقة الحق،وقيل : هو التأليف والجمع بين الخصمين .»[1]

فإن رفض التحاكم إلى الشريعة ذنب عظيم ، وكفر مبين ؛ ولكن الاعتذار عنه يمثل سلسلة من الكبائر، فهم كاذبون في الاعتذار، ويحلفون على الكذب أيمانًا باطلة ، ثم هم يسمون الشر

(١) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ) معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ـــ الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت ١/ ٦٥٦.

بغير اسمه خداعًا ثم يخادعون بذلك الرسول وهم يعلمون أن الله تعالى سيكشف له كذبهم وبهتانهم ، فأيجرأة على الباطل يمثلها هؤلاء الضالون؟.(٢)

ثالثاً: اتخاذ أيمانهم جنة للصدع نسبي لالله.قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[المنافقون: ٢-٣]

رغم أنسياق الآيات ليظهر فيه أن أحد اطلب منهم هذا التأكيد لكنهم يحرصون عليه ببساطة لأنهم يعلمون أنهم يكذبون يدركون أن قولهم الظاهر يخالف معتقدهم الباطن، ويشعرون أن ذلك الاختلاف سينضح على وجوههم ؛ لذلك يشهدوا ويؤكدوا ذلك مرارا ثم يظنوا أن هذا كله لايكفي فلجأوا إلى درعهم الأهم الأيمان.لأن تكذيب الله تعالى إياهم فيقولهم للنبيء صلى الله عليه وسلم: نشهد إنك لرسول اللهﭽقَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يثير في أنفس السامعين سؤالاً عن أيمانهم لدى النبيء صلى الله عليه وسلم بأنهم مؤمنون به وأنهم لايضمرون بغضه فأخبر الله عنهم بأنهم اتخذوا أيمانهم تقية يتقون بها و قد وصفهم الله بالحلف بالأيمان الكاذبة في آيات كثيرة من القرآن.والجنة: مايستتر به ويتقى ومنه سميت الدرع جنة.

(٢) عبد الستار فتح الله سعيد – إستاد التفسير وعلوم القرآن بجامعتي الأزهر وأم القرى بيان القرآن لانحرافات المنافقين، وطرق الرّدّ عليهم – http://www.manaratweb.com

والمعنى: جعلوا أيمانهم كالجنة يتقى بها ما يلحق من أذى. فلما شبهت الأيمان بالجنة على طريقة التشبيه البليغ ، أتبع ذلك بتشبيه الحلف اتخاذ الجنة ، أي استعمالها ، ففي اتخذوا استعارة تبعية(١).

رابعاً : الخوف من المؤمنين : قال تعالى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[التوبة:٦٤]

أي يخشى المنافقون أن تنزل في شأنهم على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم ﴾أيتخبرهم بما في قلوبهم فتفضحهم ، وقوله تعالى لرسوله:﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾أي افعلوا الاستهزاءَ و هو أمر تهديدچچاللَّهَ مُخْرِجٌ چأيمن القوةِ إلى الفعلِ أو من الكُمون إلى البروز(٢).

خامساً: تعود هم على صفة الحلف الكاذب: قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد: ٢٩: ٣٠].

(١) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» الناشر : الدار التونسية للنشر ١٩٨٤ هـ / ٢٣٦.

(٢) جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبو بكر الجزائري ـــ أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ـــ مكتبة العلوم والحكم، المدينة (٣٩٠).

يقول اللهّ عزَّوجلَّ: ولو نشاء يا محمد لأرينا كأشخاص هم فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ، ستراً منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾أيفيمايبدو من كل أمهم الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أي الحزب ينهو بمعاني كل ام هو فحواه ، وهو المراد من لحن القول(١)

قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي – صلى الله عليه وسلم – من افق إلاعرفه . وقيل : كان المنافقون يخاطبون النبي – صلى الله عليه وسلم – بكل امتواضعوه في ما بينهم ، والنبي – صلى الله عليه وسلم – يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد ، فنبهه الله تعالى عليه ، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامهم . قال أنس : فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ،عرفه الله ذلك بوحي أو علامة عرفها بتعريف الله إياه . والله يعلم أعمالكم أي لايخفى عليه شيء منها(٢) قال تعالى :﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾[المجادلة: ١٨].أي يحلفون باللهّ عزّوجلّ أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ، لأن من عاش على شيء مات علي هو بعث علي هو يعتقدون أن ذلك ينفعهم عند اللهّ كما كان ينفعهم عند الناس فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ، ولهذا قال:

(١)أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم ـــ دار طيبة للنشر والتوزيع –الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م ٧/ ٣٢١.

٢) أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ) التسهيل لعلوم التنزيل ـــ الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ـ الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ ٢/

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على المؤمنين ، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون ، فإذا كان يوم القيامة و بعثهم الله جميعا ، حلفو الله كما حلفوا للمؤمنين ، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء ، لأنكفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة ، لمنزل ترسخ في أذهانهم شيئا فشيئا ، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به ، ويعلق عليه الثواب ، وهم كاذب ونفي ذلك ، ومن المعلوم أن الكذب لاي روج على عالم الغيب والشهادة.

وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم ، وزين لهم أعمالهم ، وأنساهم ذكر الله ، وهو العدو المبين ، الذي لايريد بهم إلا الشر (1)

المبحث الثالث

أولاً: إنكارهم لقول كلمة الكفر.

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ۚ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ۖ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[التوبة: ٧٤].

فإذا بلغهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغه شيء من ذلك ، جاءوا إليه يحلفون بالله ماقالوا.

(1) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ـــ الناشر: مؤسسة الرسالة ـــ لناشر: مؤسسة الرسالة ـــــــــ ١/ ٨٤٧

قال تعالى مكذباً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾فإسلامهم السابق – وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر – فكلامهم الأخير ينقض إسلامهم ، ويدخلهم بالكفر.

قال بن عاشور "لما كان معظم ما أخذ على المنافقين هو كلمات دالة على الطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم ونحوذ لكمن دلائل الكفر وكانوا إذا نقل ذلك عنهم تنصلوا منه بالأيمان الكاذبة ، عقبت آية الأمر بجهادهم بالتنبيه على أنما يتنصلون به تنصل كاذب وأن لاثقة بحلفهم ، وعلى إثبات أنهم قالوا ماهو صريح في كفرهم. فجملة يحلفون مستأنفة استئناف ابيانيا يثيره الأمر بجهادهم مع مشاهدة ظاهر أحوالهم من التنصل ممانقلعنهم ، إن اعتبر المقصود من الجملة تكذيبهم في حلفهم."[1]

ثانياً: أن مراداهم الإحسان والتوفيق.

قال

تعالى:﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾[النساء: ٦٢].

تفريع على قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾[النساء: ٦١] الآية ، لأن الصدود عن ذلك يوجبغضب الله عليهم ، في وشك أن يصيبهم الله بمصيبة منغير فعل أحد ، مثل انكشاف حالهم للمؤمنين فيعرفوا بالكفر فيصبحوا مهددين ، أو مصيبة من أمر الله

رسوله والمؤمنين بأن يظهروا لهم العداوة و أن يقتلوهم لنفاقهم فيجيئوا يعتذرو نبأنهم ما أرادوا بالتحاكم إلى أهل الطاغوت إلا قصد الإحسان إليهم وتأليفهم إلى الإيمان والتوفيق بينهم وبين المؤمنين. وهذا وعيد لهم لأن إذا للمستقبل ، فالفعل ان بعدها:وهما أصابتهم وجاؤك مستقبل ان وهو مثل قوله: «لئنلم ينته المنافقون والذينفي قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثملا يجاورونك فيها إلا قليلا ملعونين أين ماثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا» ..(١)

ثالثاً:القسم بأنهم معال مؤمنين:

قال تعالى:﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾[التوبة: ٥٦]

القول في تأويل لقوله :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾(٥٦)قال أبو جعفر: يقول تعالى ذكره: ويحلفب الله لكم ، أيها المؤمنون ، هؤلاء المنافقون كذبًا وباطلا خوفًا منكم: ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾في الدين و الملة. يقول الله تعالى،مكذّبً الهم: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾،أيليسوا

(١) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ):التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ـــــــــــ الناشر : الدار التونسية للنشر– تونس ـــــ١٩٨٤ هـ(١٠٧/٥)

(٢) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ـــــــــــ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي ـــ(٤٢٤/٣)

من أهل دينكمو ملتكم ، بل هم أهل شكٍّو نفاقٍ﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾يقول: ولكنهم قوم يخَافونكم ، فهم خوفًا منكم يقولون بألسنتهم: " إن أمنكم "، لي أمنوا فيكم فلا يُقْتَلوا.

رابعاَ: حلفهم للنبي بأنهم لو أمروا لأطاعوا.

قال تعالى :﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لئن أمرتهم ليخرجنك للاتقسموا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[النور: ٥٣]

وقوله – عزوجل – :﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾جهد اليمين أن يحلف بالله ، ولاحلف فوق الحلف بالله،﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾وذلك أن المنافقين كانوا يقولون لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أينما كنت نكن معك ، لئنخرجت خرجنا ، وإن أقمت أقمنا ، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا ، فقال تعالى : ﴿قُل﴾لهم﴿لَّا تُقْسِمُوا﴾لاتحلفوا ، وقد تم الكلام ، ثم قال:{طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} أي : هذه طاعة بالقول وباللسان دون الاعتقاد ، وهي معروفة أي : أمر عرف منكم أنكم تكذبون وتقولون مالا تفعلون ، هذا معنى ولمجاهد رضي الله عنه . وقيل : معناه طاعة معروفة بنية خالصة أفضل وأمثل من يمين باللسان لايوافقها الفعل . وقال مقاتل بن سليمان : لتكن منكم طاعة معروفة . ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول صلى الله عليه وسلم لئنأمرهم بالخروج [فيالغزو] قال الله تعالى : {قللا تقسموا} أي : لاتحلفوا .(١)

(١) محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ)مع المالتنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي – الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت –الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ (٣–٤٢٤)

وقوله : {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} قيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة ، أي : قد علمت طاعتكم، إنما هي قول لافعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم،كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة : ٩٦] ،وقال تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[المنافقون : ٢] ،فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه ،كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الحشر : ١١] وقيل : المعنى في قوله : {طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ} أي : ليك نأمركم طاعة معروفة ، أي : بالمعروف من غير حلف ولاإقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم {إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} أي : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة – والباطن بخلافه ، وإن راجع لى المخلوق – فالخالق،تعالى،يعلم السر وأخفى،لايروج عليه شيء من التدليس،بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها[1].

خامساً: قسمهم بنصر أهل الكتاب.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم(٦/٧٦).

مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾[الحشر: ١١: ١٢]قوله –تبارك وتعالى

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ﴾...الآية.

لما ذكر الله –تبارك وتعالى–طوائف المؤمنين الثلاث ، وأثنى عليهم ذكر بعد ذلك حال هؤلاء المنافقين مع جِبًا نبيهﷺمن تلك الحال ، وكما مضى فيقوله –تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾[سورةالمجادلة:١٤]،وأن الله عجّب نبيهﷺمنتلك الحال ، وهكذا أيضًا هنا أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا كعبد الله بنأُبي ، وعبدالله ، وأمثال هؤلاء من أهل النفاق . يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، يعني عندما كان المنافقون كفارًا في الباطن صارت بينهم هذه الأخوّة لإخوانهم من أهل الكتاب ، والمقصود اليهود يهود النضير، فإنعبد الله بنأُبي هو الذي قال لهم: اثبتوا ولاتخرجوا من دياركم ، وسنقف معكم ، ونعينكم وننصركم ، ومصيرنا واحد ، كما أخبر الله –تبارك وتعالى.(٢)

والأخوة كما في سورة الأحزاب﴿ وَأَلْقَىٰ إِلَيْنَا ﴾[سورة الأحزاب:١٨] تكون لنوع علاقة ، فالأخوة تارة تكونب النسب، وتارة تكون باعتبار القبيلة ، وتارة تكون باعتبار البلد الذي يجمعهم ، وتارة تكون باعتبار الاعتقاد ،فالمنافقون إخوة لليهود بهذا الاعتبار أنهم

(٢) أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي–الناشر: دار الكتب المصرية–القاهرة–طبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ–١٩٦٤(١٨–٣٤)

جميعًا كفار في الباطن ، والرؤية هنا كما سبق في قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم ﴾يمكن أن تكون بصرية.

قال الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾أي: لكاذبون} فيما وعدوهم به ، إما لأنهم قالوا لهم قولا من نيتهم ألايفوا لهم به ، وإما لأنهم لايقع منهم الذي قالوه.

سبق أن الكذب تارة يطلق على هذا ، وتارة يطلق على هذا ، يعني تارة يطلق على مايحصل بها لحلفبين اللسان والقلب ، وهذا هو الذي ورد فيها لذم شرعًا ، يقول بلسانهم الايعتقد بقلبه ، التخالف بين قول اللسان وماينطوي عليه القلب ، والإطلاق الآخر وهو أوسع من هذا يقال لكلت خالف بين قول اللسان ومافي الخارج ، يعني و مايقع أو ماهو واقع ، فذلك يق الله: كذب.

وابن كثير –رحمه الله– يشير إلى الأمرين،يقول: يحتمل أنهم قالوا ذلك كذبًا و هم لايريدون أن يفعلوا ذلك ، فيكون التخالف وقع مابين اللسان وما ينطوي عليه القلب ، يعني قالوا لهم بألسنتهم شيئًا لايريدون أن يحققوه ، أو أنهم قالوا شيئًا علم الله أنه لن يحصل ، وإن كانوا يريدون في البداية أن يفعلوا حينما قالوا هذا القول ، ولكن لن يقع ، فهذا الحلف يكون كذبًا.(١)

سادساً الوعيد من الله بمن يقسم بالله كذبا

يُكره الإفراط في الحلف بالله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾(القلم: ١٠)

(١) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي ـــــ تفسير القرآن العظيمـــ (٨/ ٧٤) .

وهذا ذم له يقتضي كراهة فعلهأ فإن لم يخرج إلى حد الإفراط فليس بمكروهأ إلا أن يقترن به ما يوجب كراهته.

إن كثرة الحلف عادة ما تجر الإنسان إلى الكذب، وتنزع هيبة اليمين من قلبه فلا يكون لها تأثير على نفسه.

قال النووي (رحمه الله): إبرار القسم سُنَّةٌ مستحبةٌ متأكدة، وإنما يندبُ إليه إذا لم يكن فيه مفسدة أو خوف ضرر أو نحو ذلك، فإن كان شيء من هذا لم يبر قسمه[1].

أولاً: خلودهم في النار

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[النساء:١٤٥]

يخبر تعالى عن مآل المنافقين أنهم في أسفل الدرك أتمن العذاب ، وأشر الحال أتمن العقاب. فهم تحت سائر الكفار لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله ، وزادوا عليهم المكر والخديعة والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين ، على وجه لايشعر به ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم ، واستحقاق مالا يستحقونه ، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب ، وليس لهم منقذ من عذابه ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه ، وهذا عامل كل من افق إلا مَنْ الله عليهم بالتوبة من السيئات[2].

([1]) أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ) المغني لابن قدامة ـــ الناشر: مكتبة القاهرة ـــ ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م بدون طبعة .(١٣/ ـــ٤٣٩).

([2]) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي،أبو جعفر الطبري جامع البيان في تأويل القرآن(١٨٣/٢٢).

ثانياً: الخسران وإحباط الأعمالقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[محمد: ٢٨]وقوله:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ ﴾يقول تعالى ذكره: تفعل الملائكة هذا الذي وصفت بهؤلاء المنافقين من أجل أنهم اتبعوا ما أسخط الله، فأغضبه عليهم من طاعة الشيطان﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾يقول: وكرهوا ما يرضيه عنه ممن قتال الكفاربه، بعدما افترضه عليهم.وقوله:﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾يقول: فأبطل الله ثواب أعمالهم وأذهبها لأنه اعمل تفي غير رضا هولا محبته، فبطلت،ولمتنفع عاملها.

ثالثاً: العذاب الأليم في الدنيا و الآخرة:

قال تعالى :﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[النساء:١٣٨]البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيدكما في هذه الآية.

يقول تعالى:﴿ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ ﴾أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، بأقبح بشارة وأسوئها ، وهو العذاب الأليم ، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم ، وتركهم لموالاة المؤمنين ، فأي شيء حملهم على ذلك ؟ أيبتغون عندهم العزة ؟ وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين ، ساء ظنهم بالله وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين ، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين ، وقصر نظرهم عمّا وراء ذلك ، فاتخذوا الكافرين أولياء يتعززون بهم ويستنصرون. والحال أن العزة لله جميعا ، فإن نواصي العباد بيده ، ومشيئتهن أفذة فيهم. وقد تكفل بنصر دينه و عباده المؤمنين ، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده

المؤمنين ، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة ، فإن العاقبة و الاستقرار للمؤمنين ، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين ؛ وترك موالاة المؤمنين ، وأن ذلك منصفات المنافقين ، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم ، وبغض الكافرين وعداوتهم[1]

المبحث الخامس

المواضع التي أمر الله نبيه بالرد على من حلف كاذبا

أولاً:الإعراض عنهم:قال تعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[النساء: ٨١]

وفى قوله تعالى :چ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ چيعني : المنافقين يقولون باللسان للرسول صلى الله عليه وسلم : إنا آمنا بك فمرنا فأمرك طاعة ، قال النحويون : أي أمرنا و شأننا أن نطيعك ،﴿ فَإِذَا بَرَزُوا ﴾خرجوا،﴿ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ﴾قال قتادة والكلبي : بيتأي : غير وبدل الذي عهد إليهم النبي صلى الله عليه وسلم،ويكون التبييت بمعنى التبديل،وقال أبو عبيدة: معناه : قالوا وقدرو إلي لا غيرما أعطوك نهارا ، وكلما قدر بليل فهو تبييت ، وقال أبوالحسن الأخفش : تقول العرب للشيء إذا قدر، قد بيت ، يشبه ونهب تقدير بيوت الشعر، (والله يكتب) أي : يثبت ويحفظ[2] .

---

(1) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ـــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/ ٢٠٩).

(2)أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ـــ معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي(١/ ٦٦٦).

قال: الشيخ السعدى "ولابد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا في الحضرة والمغيب. فأما مَنْ يظهر في الحضرة والطاعة والالتزام فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه ترك الطاعة وأقبل على ضدها ، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولامفيدة ، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ﴾ أي: يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك. ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ ﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لايطلع فيها عليهم. ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾أي: بيت واو دبروا غير طاعتك ولاثَمَّ إلا المعصية. وفي قوله: ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة ؛ لأن التبييت تدبير الأمر ليلا على وجه يستقر عليه الرأي،ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: { رسوله بمقابلتهم بالإعراض وعد مالت عنيف ، فإنهم لايضرونه شيئا إذا توكل على الله واستعان به فينصر دينه ، وإقامة شرعه."ولهذا قال: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[1].

ثانياً: وصفهم بأنهم رجس:قال تعالى

:﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة: ٩٥].

جاء في معنى الآية:﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾ولا توبخوهم . إِنَّهُمْ رِجْسٌ لاينفع فيهم التأني بفإن المقصود منها لتطهير بالحمل على الإنابة وهؤلاء أرجاس لاتقبل التطهير فهو علة لإعراض وترك المعاتبة. وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ من تماما

([1])عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي ـــــ تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (١/١٨٩).

لتعليل وكأنه قال: إنهم أرجاس من أهل النار لاينفع فيهم التوبيخ فِي الدنيا و الآخرة، أَوْ تعليل ثان والمعنى: أن النار كفتهم عتاباً فلا تتكلف و أعتابهم.[1]

قال بن عاشور" والرجس: الخبث. والمراد تشبيههم بالرجس في الدناءة و دنس النفوس. فهو رجس معنوي . كقوله: إنما الخمر و الميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان" والمأوى: المصير والمرجع.وجزاء حال من جهنم ، أي مجازاة لهم على ما كانوا يعملون

ثالثاً: القول البليغ: قال تعالى:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴾[النساء: ٦٣].

وقوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾تكذيب المنافقين المتقدم ذكرهم وتوعدهم ، أيفه ومجازيهم بمايعلم ، و﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾يعني عن معاقبتهم ، وعن شغل البال بهم ، وعن قبول أيمانهم الكاذبة فيقول هيَ حْلِفُونَ وليس بالإعراض الذي هو القطيعة و الهجر، فإنقوله: وَعِظْهُمْ يمنع من ذلك ، وَعِظْهُمْ معناه بالتخويف من عذاب الله ، وغيره من المواعظ ، والقول البليغ اختلف فيه ، فقيل:

---

(1)ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) ـــ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـــدار إحياء التراث العربي – بيروت ـــ الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ ـــ (٩٤/١)

(2) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي ىـــ :التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»الناشر : الدار التونسية للنشر – تونســـــــ سنة النشر: ١٩٨٤ هـــ (١١ـــــ١٠)

هو الزجر والردع والكف بالبلاغة من القول، وقيل: هو التوعد بالقتل إن استداموا حالة النفاق ، قاله الحسن، وهذا أبلغ مايكون في نفوسهم ، والبلاغة: مأخوذة من بلوغ المراد بالقول ، وحكي عن مجاهد أنقوله: فِي أَنْفُسِهِمْ ، متعلق بقوله: مُصِيبَةٌ و هو مؤخر بمعنى التقديم ، وهذا ضعيف.

رابعاً: عدم طاعتهم في ما يقولونه

قال تعالى:﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب :٤٨].

وفى قوله :﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾معناه: الدوامو الثبات على ماكان عليه. أو التهييج أَذا هُمْ يحتمل إضافته إلى الفاعل والمفعول. يعنى: ودع أن تؤذيهم بضرر أو قتل، وخذ بظاهرهم ، وحسابهم على الله في باطنهم. أو: ودع مايؤذونك به ولاتجازهم عليه حتى تؤمر، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هي من سوخة بآية السيف وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فإنه يكفيكهم، وكفى بهم فوّضا إليه،ولقائلأن يقول: وصفه الله بخمسة أوصاف ، وقابل كلا منها بخطا بمناسب له ،قابل الشاهد بقوله: وبشر المؤمنين ، لأنه يكون شاهدا على أمته وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير و المبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ، لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة و النذير بدع أذاهم ، لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر- والأذى لا بدّله من عقاب عاجلاً وآجل- كانوا من ذر ينبه في

المستقبل،والداعي إلى الله[1]

وجاء في معنى الآية:﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾نهيٌ عن مداراتِهم في أمرِ الدَّعوةِ و استعمالِ لينِ الجانبِ في التبليغِ و المسامحةِ في الإنذارِ كُن يعن ذلكَ بالنَّهيِ عن طاعتِهم مبالغة في الزجر والتنفيرِ عن المنهيِّ عنه بنظمه في سلكِها وتصويرِه بصورتِها و من حمل النهي على التَّهييجِ والإلهاب فقد أبعدَ عنِ التَّحقيقِ بمراحلَ ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ أي لاتبال بأذيَّتِهم لك بسببِ تصلبكَ في الدَّعوةِ و الإنذارِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾في كلِّ ماتأتيوماتذرُ من الشئون التي من جملتها هذا الشَّأنُ فإنَّه تعالى يكفيكهُم﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾موكُولاً إليهِ الأمورُ في كلِّ الأحوالِ[2]

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُ ونَفهم عرفوا الإيمان إذن،ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر. ومايعرفالإيمانثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه،أو تذوق، أو حياة. وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف ،ويطلع على التصور الإيماني للوجود ، وعلى التذوق الإيماني للحياة ، ويتنفس في جو الإيمان الذكي ، ويحيا فينور الإيمان الوضيء ، يفقه ولايحسولايشعر بهذا الفارق البعيد! ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾.

(١)أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ) ـــــ أبوزيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (٢ ــ٣١٧)

(٢) أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ـــــ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ـــــ الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ـــــ لطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ(١/ ٥٤٧)

(١) أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) ـــــ تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـــــ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت(٧/ ١٠٨)

هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ، ليستجد يدة ، ففي تاريخ البشرية لها نظائر و أمثال. ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز. ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة و الطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم في هذه الأرض. وكانوا أشد قوة و أكثر أموالاً وأولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء.

الخاتمة

وتشمل أهم النتائج والتوصيات

ـــ أن القرآن الكريم أشتمل على معالم واضحة للتعامل مع المنافقين والتصدي لهم وهي مبثوثة في ثنايا الآيات والسور لعل أبرزها ماقمت بجمعه وتوضحيه لهذه الدراسة .

ـــ أن المنافقين في المجتمع المسلم هم أخطر عدو يسعي تفكيك المجتمعات وبث الفرقة بين افرداها

ـــ أن جهاد المنافقين وفضح مخططاتهم من أعظم القربات عند الله لماقيه من دفع خطر عظيم على هذه الآمة واخذ العبرة من التاريخ.

ـــ ضرر المنافقين بالمؤمنين من خلال التستر بالأعمال المشروعة. والتفريق والدس بين المسلمين، وإيقاع الفتنة بينهم، واستغلال ما يحدث من خلافات للإيقاع بينهم. الإفساد في الأرض، والادعاء بالإصلاح.

ـــ مخادعة الله تعالى والمؤمنين، والخروج عن دائرة المسلمين. الأمر بما نهى الله عنه، والنهي عمّا أمر به.

الحلف كذباً ليستروا أنفسهم بعد فعلهم السيئات. ومولاتهم للكافرين بنصرهم على المؤمنين.

ـــ خلدوهم في نار جهنم، وهم في الدرك الأسفل من النار أي في قاع جهنم، فيتعرّضون فيها للعذاب الشديد، وعليهم لعنة الله، ولا ينصرهم أو يعينهم أحد.

أهم التوصيات

الاستفادة من العلوم الحديثة كعلم النفس الدعوي والتربوي والوصول إلي الأسباب الكامنة وراء هذا النهج المنحرف .